قصة قصيرة

يوم ينفع الندم

آية يوسف

غلاف خارجي: علا عوض

تنسيق ومراجعة فريق جروب

"وحي القلم"

https://www.facebook.com/groups/wahy.alqalam

مقدمة

يلفظنا قطار الحياة تحت عجلاته أحيانًا؛ ليسير فوق أجسادنا غير مُبالي، نُبتلى ونُكافأ، نتنعّم تارة وتُنتزع منا بعض النعم تارة أخرى، هكذا هي الحياة ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾! (سورة البلد آية 4)

هناك مكافآت دنيوية وهناك مكافآت أُخروية، لكن لابد أن نعلم أن من عاش حياته مع الله اكتسب مناعة ضد آلام ومآسي الحياة اسمها "الرضى" جنودها من "الصبر الجميل"، ليحصد مكافأته الكبرى في حياته الأبدية "السلعة الغالية" جنان عرضها السماوات والأرض.

فمن زهد الدنيا واتخذ شعار الرسول -صلى الله عليه وسلم- هدفًا له "وما العيش إلا عيش الآخرة" فاز في الدنيا والآخرة، عندئذ يستحق أن نقول له:

"ربح البيع يا عبدُ الله"

رسالة اعتذار ووداع

"حاولت التحمل كثيرًا لكنني لم أستطع، تحملت بجلد مآسي لن تستطيع حملها الجبال، لم أدعُ يومًا عليكم رغم ما فعلتموه بي؛ خوفًا عليكم من عذاب المولى-عز وجل- فمازلتم أهلي سواء من كان منكم من لحمي ودمي أو من تزوجته؛ أملًا في إيجاد ما فقدته معكم.

سأترككم لا أعلم هل ستستوعبون ما اقترفتموه في حقي أم ستظلون على كبركم وظلمة قلوبكم، عندئذ فلقاؤنا أمام الله وحده من سيحكم بالعدل.

أترككم في أمان الله ولكن قبل رحيلي سأنصحكم نصيحة، حاولوا التعلم مما حدث معي وعاملوا بعض بألفة، أحبوا بعضكم وتعاونوا ولا تتركوا الشيطان في رحابكم تسيرون حسب ما يمليه عليكم.

لا تبحثوا عني، فأنا سأكون مع أحن مخلوق عليَّ.

زهرة صالح عبد المنعم

****

- لقد ظلمتِ نفسكِ مع الباقي، فقبل أن تأخذي حق نفسكِ من الآخرين خذيه من نفسكِ أولًا!

نظرت بأعين منكسرة دامعة انتشلها التعجب من مشاعرها البائسة، وردت بصوت بحّه البكاء:

- أنا؟! أنت لم تفهم أنا المجني عليها ولست الجانية، أنا من تحملت الكثير بصبر وجلد لم أشكُ سوى لله فعباده خذلوني!

صمتت وتجمعت الدموع في عينيها بعد أن جففها التعجب الذي سرعان ما تبخر، وأردفت بنبرات خافتة يغربلها الإحباط:

- حتى أنت يا أبي، لقد هربتُ منهم وجئتُ إليك لأني أعلم أنه لن يفهمني غيرك.

نظرت إلى الأرض التي لم ينجح عشبها الأخضر في التقليل من اكتئابها، لطالما خرجت الدراسات وتحدث

العلماء عن أثر اللون الأخضر والطبيعة بصفة عامة على النفسية ولكن هيهات.

ها هي السماء في أجمل حالاتها فلمَ عيونها لا ترى سوى الغيوم؟! ها هي الخضرة البديعة فلمَ قلبها لا يشعر بكينونتها ككائن حي يتنفس مثلها يسمعها ويتقبلها؟! ها هي النسمة فلمَ صدرها يضيق كأنما يصّعد إلى السماء؟! لا تفهم يبدو أن الحياة بشرقها وغربها بأرضها وسمائها أحكمت قبضتها عليها لتختنق.

- هوني على نفسكِ، لقد صبرتِ حقًا، ولكن ليس الصبر الجميل، هل تعلمين ما هو الصبر الجميل؟

رفعت عيونها تراه صورة مشوشة من خلال عبراتها التي لم تتوقف فجعل صدرها يختلج وأنفاسها تتقطع أكثر فأكثر حتى كادت تختنق بالفعل.

- أليس أن أصبر دون الشكوى لأحد؟

اقترب منها أجلسها على العشب بعد أن رأى ساقها لم تعد تحتمل كما نفسها، فكادت تسقطها مرة أخرى، ابتسم

وهو يمسح دمعاتها برفق ويداعب وجنتيها؛ ليخفف عنها؛ كي تستوعب ما سيقول، ثم تحدث بنبرة حانية اشتاق إليها قلبها:

- أحسنتِ، هذا صحيح يا زهرتي، ولكن للصبر الجميل علامات إن فقدها ذهب كل تعب الصابر هباءً، فالصبر يعني عدم الشكوى وعدم الجزع والقنوط، يعنى استشعار قول الله "إن الله مع الصابرين" ومثلها من آيات الصبر الجميلة التي تبعث الطمأنينة في أنفسنا، أن نقتدي بسيدنا "أيوب" ونكون أوابين شاكرين لأنعم الله، فإذا انتزع منا نعمة مازالنا نغرق في نعم لا تعد ولا تُحصى، يجب أن يطّلع الله علينا عند الابتلاء يجدنا راضين شاكرين مطمئنين إلى رحمته وحبه لنا، أنه سيعوضنا خيرًا "إن الله يحب الصابرين" يحبنا.. نعم يحبنا نحن، فنطمئن به ونركن إليه، أعلم أن مرارة الظلم والابتلاءات صعبة نستفرغ معها أغلب أيامنا الحُلوة، ولكن لابد أن نستيقن أن القادم أجمل

طالما نحسن الظن بالله، فهل صمدتِ حتى النهاية وأحسنتِ الظن بالله؟!

خرجت تنهيدة طويلة منها أخرجت معها آخر زفرة قنوط، زفير أسود نفخه الشيطان في جوفها استوطن رئتيها انتقل كدورة انتقال الأكسجين إلى قلبها أظلمه ودفنه بالرماد، نظرت إلى الأرض مرة أخرى ولكن هذه المرة رأت اخضرار العشب وقد انتعش وازدهر، لقد علمت مقصده.

ترك عينيها تلتقط جميل المشهد هذه المرة ولم يرفع وجهها إليه، ثم أكمل:

- أحيانا تصيبنا وساوس الشيطان ونفسنا الأمارة بالسوء بالأمراض النفسية، فالشيطان يستغل وجود القرين الكافر الذي يلازم كل منا ويعلم عنكِ كل شيء، يعرف نقاط ضعفنا فيدخل لنا منها، يتخير ما سيكسرنا ويضغط عليه بقوة في محاولة لإتمام كسره، رغم علمه أنه حتى وإن كسره فمع الله

يتحقق المستحيل ويعود المكسور كما كان وأفضل إذا أراد فقال كن، فسيكون بأمره.

- لقد علمت خطئي يا أبي، سأعود إلى الله مقبلة لا مدبرة، أتوكل عليه لا أقنط وأجزع من ابتلائه، لقد نفثت آخر ما تبقى من الرماد الذي غطى قلبي بعد أن عمّرته بالإيمان في الماضي، وأثق أن الله سيغفر لي كما قال "أنا عند ظن عبدي بي" سأحسن الظن بالرحمن ذي الجلال والإكرام.

حاولت احتضانه ولكنها لم تستطع، فانقبض قلبها، حدثت نفسها برجاء:

"أبعد أن انفكت السلاسل التي كانت على قلبي ينقبض؟!"

****

- حمدًا لله على سلامتك، لماذا تفعلين فينا وفي نفسك ما فعلتِهِ؟ لقد انخلعت قلوبنا خوفًا عليكِ.

أكملت فتح عينيها، ولكن باقي جسدها لا تشعر به، حاولت قبض كفها وفكه، وتحريك ساقيها حتى بدأت تستعيد سيطرتها عليه.

- ماذا حدث أين أنا؟ وأين أبي؟

نظر الجميع إلى وجوه بعضهم البعض بألم وتعجب، قبل أن يربت على كتفها زوجها ويقول بصوت حاني:

-رحمه الله- كدت تفجعين قلوبنا عليكِ، سامحينا إن أثقلنا عليكِ، فنحن نحبك لكننا لم نحسن إليكِ، أخرجنا جُل ضغوطنا عليكِ ولم نفهمكِ أو نسمعكِ.

تابع أخيها الأكبر:

- تعودنا منكِ أنكِ تسمعيننا وتهونين علينا وتتحملينا في كل حالاتنا فحمّلناك فوق طاقتك.

جلست أختها الصغرى تحت قدميها تدلكها لها، تتحدث مع دموعها التي لم تستطع حبسها:

- لم تشتكي يومًا، لم تقولي كفى! لم تفشي سر أحدٍ فينا فلم نعلم أنكِ تحملين كل ضغوطنا مع ضغوطكِ وآلامكِ على عاتقكِ.

اختتمت الاعتذار أختها التوأم وهي تقف على رأس فراشها في المشفى، تنظر إلى المحاليل المعلقة لأختها، لم تسطع النظر في عينها، لطالما حسدتها على قوة إيمانها ورجاحة عقلها لم تتوقع يومًا أن تأتي إلى المشفى منتحرة:

- لم نجد إلا أنتِ في وجهنا عند أزماتنا، هذا لقدرك عندنا، لم نعرف مطلقًا أننا أثقلنا عليكِ إلى هذه الدرجة، حتى مرضكِ الذي تشتكين منه في بعض الأحيان، لكونك تتحملين طوال عمرك ظننا أنك تتمارضين أو تهولين!

احتضن زوجها رأسها إلى قلبه، سمعت دقات قلبه التي إن تسابقت مع قلب عدّاء[1] في هذا الوقت لسبقته بأميال.

[1] - محترف رياضة الجري

- سامحينا، لا تفكري في تركنا بهذه الطريقة مرة أخرى لقد خفنا أن نفقدكِ لم نعلم بقيمتكِ ومقدار حبنا لكِ وحجمه إلا عندما وجدناكِ وقد خف نَفَسُكِ مُلقاة على الأرض في حجرة أبيكِ في بيتكم القديم، لقد بحثنا عنكِ في كل مكان عندما تأخرتِ دون إخبار أحد بمكان وجودك.

سقطت دمعاته على يدها فتعجبت!، زوجها الذي لا يبكي أمام أحد مطلقًا ولا حتى أمام نفسه يبكي أمامها وأمام إخوتها يبدو أنه فُجع حقًا، سمعت أنفاسه تعلو وصوته تحشرج مع استكماله لحديثه الذي احترمه الجميع:

- وجدناكِ تجلسين على الأرض تسندين رأسك على يديك على طرف الفراش وإلى جوارك رسالتك، ظنناكِ ...

اختنق صوته أكثر فزاد من احتضناها، انسحب البقية دون صوت إلا من وقع دمعاتهم على أرض الغرفة

تاركين زوجها يُعلمها كم خافوا عليها! ويعتذر منها على أخطائهم في حقها.

أردف حديثه بعدما استعاد جزءًا من قوته:

- ظنناكِ فارقتينا إلى الأبد لم نشعر بأنفاسك ولم تستجيبي لأي محاولة لإنعاشكِ أثناء نقلك إلى المشفى، لن أسألك كيف حدث هذا؟ ونحن نعلم قدر إيمانكِ وعلمكِ في دينكِ، فأنا أعلم أننا كنا السبب الرئيسي لوصولكِ إلى هذه الحالة، فسامحينا حتى نسامح أنفسنا.

أغمضت عينيها وسالت عبراتها تغسل آخر ما تبقى من رماد قلبها، لم تستمع ولو مرة إلى اعتذارهم من قبل، فهل ما تسمعه أذنها حقيقي أم أنها تحلم في عقلها الباطن؟!

- التففنا حولكِ مع فقدان ابننا ذي الثلاثة أشهر بالحضّانة لأيام قليلة، وبعدهم تركناكِ لألمكِ وحدكِ وعدنا كما كنا، حتى أنا.. لحزني على ابننا ظلمتكِ

أكثر وأكثر وكأني انتقم منك دون ذنب لكِ في موته.

فتحت عينيها فوجدته يمسح عبراتها ينظر إليها بحب فسقطت عبراته على وجنتيها ليبقى أثرها ما طال من عمرها دليلًا على حبه لها، ستُذكّره بها إن أخطأ في حقها يومًا، ستخبرهم بكل ما يضايقها لن تكتم في صدرها وتترك نفسها للشيطان مرة أخرى.

بلمسها لعبرته علمت أنها لا تحلم أن ما يحدث أمامها حقيقة، الحلم هو لقاؤها بوالدها -رحمه الله- بعثه الله برسالة لها أو عقلها الباطن هو ما صنعه لاشتياقها له، فكل المعلومات التي قالها كانت في مكان ما في ذاكرتها استعادَتها باستعادِتها لنفسها.

حقا إنه اللطيف الرحيم بعباده رحمته وسعت كل شيء، فرغم معصيتها وذنبها بمحاولة انتحارها بأدوية مُهبّطة للقلب، بعث لها رسالة ليعيدها إلى طريقه المستقيم.

عكف لسانها على الاستغفار تكفيرًا لذنبها حتى تستطع شكر الله على إعطائها فرصة أخرى بعد أن ردها إليه

ردًا جميلا، ستظل تشكره مهما حدث في حياتها ما بقيَ من عمرها ولن تستطع شكره حق الشكر.

****

- هل المنتحر كافر؟ يقولون أنه كافر أليس المنتحر نتيجة الاكتئاب مريضًا؟ فهو لا يعلم ماذا يفعل؟ يقوم بهذا الأمر دون إرادة منه!

قامت "زهرة" عن مقعدها على المنصة سارت بضع خطوات لتقف أمام جمهورها المنتبه لها بكل كيانه نظرًا لأهمية السؤال، ابتسمت ابتسامة خفيفة كعادتها عندما تبدأ في الإجابة على سؤال ما؛ ليكون وقع الإجابة على المستمع إيجابي:

- أنا لست بكفء للتحدث في الدين ولكنني قرأت وسألت وبحثت كثيرًا في هذا الشأن فإليكِ ما استخلصته عنه، بداية سأسألك سؤالًا، هل نسمي

السارق مريضًا والقاتل مريضًا والمغتصب مريضًا ونعفيهم من الذنب والعقاب؟

لم يجبها أحد يعرفون أنها تسأل سؤالًا تعجيزيًا كالعادة؛ لتجيب هي عليه.

أردفت حديثها مع خطوات قصيرة بطيئة لكي لا تشغل عقلهم وتركيزهم المنتبه بحاسة السمع وتنقلهم لحاسة أخرى وهي البصر:

- الفرق بين هؤلاء والمنتحر أنهم يؤذون غيرهم مباشرة والمنتحر يؤذي نفسه لا الآخرين كما في اعتقاده، ولكنه في الحقيقة يؤذي الآخرين أيضًا بفقدانهم له وحزنهم عليه بعدما فارقهم بهذه الطريقة.

استنبطت من عيون من حولها اقتناع البعض، لكن الأغلبية مازالت غير مقتنعة، أخذت تنهيدة بعيدًا عن الميكرفون في يدها ثم تابعت:

- كل ذنب نرتكبه يكون بسبب سيطرة الشيطان ونفسنا الأمارة بالسوء علينا فهل نعد هكذا مرضى غير عاقلين لما نفعل؟! ثقوا تمام الثقة أن المولى عادل يعطيك رسالة واثنين وعشرة وبتوفيق منه تستجيب لهذه الرسالة أو تتجاهلها، أحيانًا الظروف من حولنا تكون سببًا وابتلاء وامتحان لنا فهل سننجح أو سنقنط ونجزع؟ كل منا له درجته في الامتحان بحسب صبره وحسن ظنه بالله، ثقوا أن لكل ابتلاء عقدة ستنفك مهما طال الزمن ولكن الإنسان خُلق هلوعًا عجولًا.

أمسكت الميكرفون بيديها وقد بدأت عينيها تلمع وقلبها يرتفع دقاته عن صوت مكبر الصوت، سرحت ببصرها كأنها لا تراهم:

- هناك شخص عزيز عليَّ قص عليّ قصة في الصحيحين مازلت أذكرها بصوته، كان هناك مجاهد يحارب مع رسول الله ﷺ حارب بجسارة لآخر لحظة أشاد به جميع من حاربوا بجانبه وبما

أصيب من جروح شديدة، وهم ينعونه أمام رسول الله ﷺ بعد انتهاء الحرب، فقال الرسول ﷺ: فلان هذا في النار، تعجب الجمع، فقال لهم: جُرِح جرحا شديدًا فاستعجل الموت وضع قاعدة سيفه على الأرض ونصله موجه لصدره وسقط عليه ليتخلص من حياته مع الألم.

أخذت نفسًا وطردت شبح والدها الذي تخيلته أمامها يحكي لها هذه القصة كما قصها عليها في الماضي، وتابعت لتربط القصة بالإجابة وتبررها:

- إجابة على الشطر الأول من سؤالك هو ليس بكافر لم يخرج من الملة لكنه ارتكب ذنبًا وكبيرة من الكبائر وهو القنوط من رحمة الله، حتى وإن دخل النار فهو لن يُخلّد إذا كان موحدًا بالله ومؤمنًا برسوله ﷺ، للأسف عدم ثقته في تفريج الله لكربه أفسدت عليه دنياه وآخرته، يظن أنه سيرتاح بعد موته أنه بذلك سيذهب إلى الرحمن وكأنه لا يحفظ من أسماء الله سوى هذا الاسم، هل سيرتاح بالفعل؟

انتظر الجميع إجابتها بفارغ الصبر، فأكملت وقد استعادت ذكرياتها مع هذا الذنب الذي كادت تسقط فيه في غفلة منها، فلا يأمن أحد الذنوب والفتن، حقًا القلوب بين يد الله يقلبها كيف يشاء.

- "مَن قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذب به يوم القيامة"[2]، وهناك أحاديث صحيحة وصريحة ومفصلة أخرى، وهو جُرم محرّم بجميع الأديان السماوية وليس الإسلام فقط، من أقبلَ على الانتحار عُذب بما انتحر به إلى يوم القيامة وفي الدار الآخرة إن شاء الله رحمه وإن شاء عذبه، ولثقل هذا الذنب امتنع الرسول ﷺ عن الصلاة على المنتحر ولكنه أمر صحابته والباقين بأداء الصلاة عليه.

رفعت يديها لتوضح أهم نقطة في حديثها:

- ولكي لا يعارضنا الأطباء النفسيين، أنا لا أتحدث عن من ذهب عقله كله أو جزأ منه فهم وإن كانوا قلة يكونون خارج تصنيفي هذا لأنهم بالفعل

[2] - رواه مسلم والبخاري

يتصرفون دون إرادة منهم، لكن لن نضع كل مكتئب وكل منتحر تحت هذا التصنيف فعلامات ذهاب العقل تفصل بينهما.

عادت ابتسامتها لا تعلم مصطنعة أم حقيقية فمازال قلبها ينبض وذكريات هذه الحادثة الأليمة لم تفارقها، استجمعت شجاعتها وختمت حديثها:

- وفي النهاية فلنعلم أننا حقًا نذهب لمن رحمته وسعت كل شيء ولكن من باب أولى نثق برحمته وحكمته في الدنيا أيضًا ليس في الآخرة فقط، فهو قادر على أن يهدي لك سائر من حولك ويُبدّل حالك من حال إلى حال، واعلم أن الدنيا دار ابتلاء فلتصبر ولتحتسب حتى تحصد أعظم جائزة لحياة أبدية لا نهاية لها، لا تتعجل وكأنك تعلم الأفضل لك فلا تبادر الله بنفسك قبل أن يبادرك هو[3] حتى لا تخسر كل شيء.

[3] - قال الله تعالى : بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة) رواه البخاري (3276) ومسلم (113(

اتسعت ابتسامتها وانحنت تحيي جمهورها، رفعت رأسها تشكرهم:

- أشكركم جميعًا على سعة صدوركم لي، وبالأخص الأهل الذين لبوا الدعوة وحضروا، فالندوة لم تكن للشباب فقط، كي يتدارك الأهل أيضًا الأخطاء التي يقعون فيها دون قصد، شكرًا لكم جميعًا.

لاقت شكر الجميع بالتصفيق وبعض صفارات الشباب تقديرًا منهم لما قدمته لهم من نفع ورفع لحالتهم النفسية خلال زمن الدورة لمدة ثلاثة أيام، وخرجت من خلف الديكور فوجدت فتاة لم تتجاوز العشرين من عمرها، على وجهها خوف وقلق وارتباك، هي تعلم هذه الملامح وهذا الشجن جيدًا، أخذتها من يدها إلى حجرتها التي خُصصت لها تستريح وتستعد فيها قبل الندوة، أجلستها.. تسألها بعيونها عما تريد أن تفضفض لم تبادرها لفظيًا.

- لم أستطع حضور الندوة من بدايتها كنت مقبلة على الانتحار بالفعل وحضّرت كل شيء وقبل الموعد

الذي حددته فتحت حسابي على "الفيس بوك" أتصفحه لآخر مرة في حياتي، وجدت دعوة من صديقة لي لهذه الندوة، شكرت فيكِ كثيرًا وقالت أنكِ كنتِ السبب في تجاوزها لأزمتها.

فركت كفيها كالأطفال فربتت "زهرة" على يدها وأمسكتها لأن الفرك يزيد من الارتباك، فأكملت الفتاة:

- تجاوزت الدعوة وأخبرت نفسي أو لا أعرف من أخبرني حقيقة لقد كنت مغيبة مسلوبة العقل أن الأمر انتهي سأنفذ خطتي مهما حدث، ظللت أتصفح حسابي فوجت بث مباشر لندوتك نظرًا لخاصية تشغيل الفيديوهات تلقائيًا في الفيس.. البث اشتغل وحده؛ سمعت كلمات قليلة اقشعر بدني منها فأكملت ووجدت نفسي أترك ما بيدي وميعاد انتحاري وجئت إليكِ راكضة لم أستطع سماع الندوة منذ البداية ولكني أريد استشاراتكِ أريد أن تنتشليني مما أنا فيه.

مع آخر حروفها اصابتها حالة هستيرية من البكاء تحاول "زهرة" احتضانها لتطمئنها ولكنها تبتعد وتحاول استكمال كلماتها بصعوبة:

- أنا ابنة لعائلة قاسية عندهم من الجفاء والأنانية ما يكفي العالم أجمع لا يحبونني يكرهونني دون سبب يعاملونني بقسوة يفعلون كل ما أبغضه عندنا في....

دلّكت "زهرة" بعض النقاط في ظهرها ومسدت شعرها حاولت بكل الطرق تهدئتها ولكن برفق دون قوة، هدأت الفتاة قليلًا، مع كلمات "زهرة" الرقيقة ويدها الحانية، فسألت بنبرة أقل حدة:

- لماذا يكرهونني وأنا من لحمهم ودمهم حتى أمي وأبي، الجميع بلا استثناء؟!

ظلت تدلك لها يدها عند إبهامها لتهدئة أعصابها وردت عليها ولكن هذه المرة دون ابتسامة تقديرًا لحالتها:

- هم لا يكرهونكِ، هم لا يفهمونك فقط، هناك بعض الأهل يتسمون بالغباء لا يفهمون بعضهم أو أحدهم،

وهناك أهل أغبى من هؤلاء ليس فقط لا يفهمون الشخص بل لا يعطونه فرصة شرح مقصده من الأساس، يشعرونه بالدونية وأنه لا يفكر بطريقة صحيحة، كل قرارته خاطئة وأحيانا يُهمّشونه، لكن ثقي تمام الثقة، أن هناك حبًا فطريًا موجودًا في قلوب الأهل إلا الشواذ عن الأصل وهم قلة.

ابتسمت ابتسامة خفيفة جدًا تكاد تكون ملحوظة لتحيطها بالقليل من الإيجابية كما تعلمت وقرأت فللأجسام والملامح ردود فعل نستطيع من خلالها نشر الإيجابية أو السلبية، ثم تابعت:

- ثقي تمامًا أنه عند أي أزمة كبيرة ستمرين بها ستجدين الجميع في ظهرك، ولكنهم أغبياء في التعامل هذا كل ما في الأمر، دعيني أقص عليك قصة لفتاة أعرفها، وبعدها نقارنها بوضعك.

قامت لتجمع أغراضها وهي تتحدث بحماس:

- أنتِ بنفسكِ ستحكمين، سنخرج لمكان مفتوح نستطيع أن نتناول فيه شرابًا، سأقص عليكِ القصة ونحن في طريقنا إليه.

****

تمت بحمد الله

2023\4\25